

فن الحكاية في العصر العباسي بين الإبداع الشعبي والتأثير الثقافي

أ.م.د. عزيزة عزالدين لافي جامعة الانبار كلية التربية للبنات

ailafie@uoanbar.edu.iq

قد تبدو تلك الحياة الجديدة التي غمرت الواقع العربي في العصر العباسي مع احتكاك العرب بغيرهم من الأمم الأخرى كالفرس والروم، غير ذات تأثير على الأدب والفن وحقول الثقافة والمعرفة الأخرى؛ لعدم اتصال تلك الأمور الذهنية والفنية بما بدأ عليه واقع الحياة في ذلك الوقت، غير أن تاريخية التغييرات التي تطرأ على المجتمعات المتباينة، تثبت غير ذلك، فكل تغيير ديموغرافي يطرأ على المجتمع يتبعه بالضرورة تغيير في فكري وثقافي في ذلك المجتمع، وبغير طبقات الأمة؛ نتيجة احتكاكها بأهم الجوار وامتزاج بشعوبها، بدأ اكتساب العرب منهم بعض ما يعرفون به ويعرف بهم من العلوم والفنون وآليات التعامل والسلوك أمراً لا جدل حوله.

-العرب وفنون القول قديماً: لقد كان العرب قبل تلك الفترة لا يعرفون من فنون الأدب سوى النظم وقسيمه النثر الفني، وكان النثر الفني عندهم محصوراً في تلك الصورة العتيقة للنثر، والتي شكّلت الخطابة أبعادها الفنية والتقنية، وقد انحصر الأدب في هذين اللوتين أمداً بعيداً، كما انحصر النثر الفني عند العرب قديماً في فن الخطابة، لا يتنازع الخطابة فناً آخر من فنون القول في النثر الفني، حتى اشتهر به عدد من الخطباء المعروفين، (قُس بن ساعدة، وسحبان وائل، وأكثم بن صيفي)، وذاع في العرب صيتهم، ولم يكن العربي ساعته يستحسن فناً من فنون القول النثرية إلا الخطابة، بل وإن من العرب من زكى الخطابة على غيرها من الفنون العربية الأخرى التي كانت منتشرة ومُشتهرة، كالأمثال، والحكم.

-الحكاية والحكاية الشعبية عند العرب: لا يعني ذلك انعدام الحس العربي بفنون الحكاية، بل كانوا أصحاب دراية ومعرفة واسعة بطرق تأليف الفن الحكائي، وقد بدأ ذلك الفن رحلته مع بدايات الإنسان الأولى، منذ بزوغ فجر الخليقة، وكانت بداياته - كأبي فن من فنون القول - غير متكاملة البناء ولا تامة الخلق، فجاء على صورته البكر مبعراً عن حياة العرب الأولى، الخالية من تعقيدات الحاضر وتشابكه، وقد استدعى العربي في ذلك الفن كل ما انتابه من مخوفات مجهولة كالغول، والجِن، والكاننات المتوحشة، وبالنظر إلى انفراد ذلك النوع من الفن القولي بسمايته، وجب تعريفه بما يستقل به من المفاهيم عن غيره من الفنون التي قد تشترك معه في جانب أو أكثر من جوانبه الفنية، وقد عرّفها الناقد محمد مجاهد بأنها: الحكاية المنبثقة من ضمير الشعب والمعبّرة عن وجدانه وآماله ورؤيته للكون والحياة والعلاقات البشرية، والمتمثلة في أخلاقه وعاداته ومعتقداته

-قالب الحكاية الشعبية عند العرب: اتحد قالب الحكاية عند أغلب الرّواة، فكانت تُروى أحداثاً مُتسلسلة عن مخاوف العربي من المجهول، وأمجاد الماضي التي حقّقها الأجداد، ورحلة البحث عن الماء والكَلأ، ول تكن لتخلو القصة الشعبية من الخرافات والأساطير، بحسب تصور الناس لها، نتيجة ما انتابهم من مخوفات تعترتهم من المستقبل؛ لأنّه في حكم المجهول، ومما قد يقع لهم فيه، و"نظراً لحلول الأديان التوحيدية من يهودية ومسيحية وإسلامية توارت أساطير ما قبل التوحيد، لعالم الآلهة وقواها السماوية"، وذلك تأكيداً على أن اختفاء بعض ملامح التشكيل الفني للحكاية الشذوية في العصور الأولى، كان مصحوباً بظهور ملامح أخرى تحل محلّها بصورة جديدة، فأختفاء الأساطير والخرافات شيئاً ما من القصة الشعبية، كان نتيجة اطمئنان روح الإنسان بالدين واستقرار قلبه وسكون مخاوفه

-أغراض الحكاية الشعبية عند العرب: في تأصيلات المؤرخين والنقاد القدماء للأصول الأولى لفن الحكاية عند العرب، نجد أنهم يؤكدون على أن العرب قد اشتركوا مع سائر الأمم في هذا الفن، وأنهم لم ينفردوا به انفراداً مطلقاً، كما أنهم لم يكونوا أول مكتشف له، بل هو مما تواطأت الأمم عليه من الفنون، غير أن اختلاف الأمم فيما بينها لم يقع في عناصر الحكاية ومكوناتها وقالبها الفني، فمن العبث الظن أن قالب الحكاية الشعبية اختلف من شعب لشعب أو من أمة لأمة، ولكنهم اختلفوا في تمثيلات الأغراض التي أنتجوا فيها حكاياهم. وعلى غرار ذلك نجد أن لكل أمة أغراضاً تميّزت بها حكاياتهم، ولا يخفى ما في "كليّة ودمنة" من الأغراض ذات البعد الاجتماعي والسياسي، أما العرب فقد تعددت أغراض هذا الفن على

تلك الصورة التي نشأ عليها لديهم، ومن تلك الأغراض: طلبُ التَّسليِّ بهِ في مُسامراتهم ليلاً عند الكعبةِ أو في نواديهم، وفي أسواقهم ومحافلهم التي كانت تجمُعهم وتغصُّ بوجودهم.

-طبيعةُ الحكايةِ الشعبيَّةِ عند العرب: لقد كانت تسيرُ الحكايةُ الشعبيَّةُ عند العربِ وفق نظامٍ معلومٍ لم يختلف هذا النظامُ لدى أحدٍ من الأمم التي شاركت العرب في هذا الفنِّ، كان ذلك النظامُ رهناً بذلك القالبِ الفنيِّ الذي يعملُ على نقلِ الأحداثِ تباعاً عبر سلسلةٍ زمنيةٍ تأخذُ المتلقِّي من الماضي البعيد أو القريب، إلى الحاضر أو المُستقبل، وغالباً ما كانت تنتهي تلك الحكاياتُ نهاياتٍ ليست حقيقيةً ولا واقعيةً، ونهاياتها غالباً مرتبطةً بالحاضر، فالحكايةُ الشعبيَّةُ العربيَّةُ لم تكن تتخطى حدودَ الواقعِ إلى ما سبق، ولعلَّ مرجع ذلك إلى حرصِ العربيِّ على عيشِ يومه بقطعِ بغضِ النَّظرِ عما يَحمله له المُستقبلُ من الوقائع التي قد تُسهم في تشكيلِ جزءٍ من حياته القادمة.

-الحكايةُ الشعبيَّةُ في العصرِ العباسيِّ بتتبعِ نشأة وتطور هذا الفنِّ في الساحةِ العربيَّةِ، نجدُ أنه ليس ابتكاراً فنياً يقومُ على أسسٍ منهجيةٍ مقصودةٍ لذاتها، بل إنَّه نظامٌ فرضتهُ الحياةُ على أهلها، فتابعوا العملَ بهِ، كأنه علمٌ موروثٌ، ولكنَّها - ولا شك - قد لحقها شيءٌ من التطوُّر؛ نتيجة اندماجِ العرب في أممٍ جديدةٍ في ذلك الوقت، وكثرةِ احتكاكهم بهم، وحاجتهم إلى تزويدِ الفنونِ القوليةِ بفنٍّ جديدٍ يتسع لِمَا لا يتسع له مجالُ الشعرِ من المعاني، فعمد القصاصونُ منهم إلى القصَّةِ الشعبيَّةِ، وجددوا فيها بما لا يخرق عادةَ العرب في الحكايةِ، ومن ملامح ذلك التجديدِ عنايةُ الكتابِ بالفاصلةِ السجعيةِ، التي ألحَّت على الهمذانيِّ في مقاماته المتضمنة لحكاياتٍ شعبيةٍ متخيَّلةٍ، ليس للتجديدِ المجردِ عن الغايةِ، بل لِمَا أثمرت به الفاصلةُ السجعيةُ من قوةٍ تأثيريةٍ تضمنُ تماهي المتلقِّي مع الحكايةِ، دون انقطاعٍ يعتريه بسببِ الملل. وقد أُنسِمَ الفنُّ القصصيُّ الشعبيُّ في العصرِ العباسيِّ بمجموعةٍ من السماتِ التي شكَّلت انتقاله نوعياً - في طورِ التحوُّلاتِ - من نسقٍ معتادٍ إلى نسقٍ جديدٍ، وذلك عبر وحدةِ الفكرة، والولوجِ السريعِ إلى الخطابِ من دون تهيئةٍ أو تقديمٍ، وسرعةِ الأحداثِ ومباشرتها، ولم يهجم القصاصون في ذلك الوقتٍ منهجاً ثابتاً في سردِ القصَّةِ الشعبيَّةِ، بل تابعوا السابقين على منهجهم في القصِّ وفي القالبِ الفنيِّ من دون محاولةٍ لإحداثِ أيِّ تغييرٍ في طريقيته؛ إذ لم يتوفَّر لذلك مُقتضى.

-بين الإبداعِ الداخليِّ، والثقافةِ الخارجيةِ مرَّت القصَّةُ الشعبيَّةُ في العصرِ العباسيِّ بأطوارٍ متعددة، شأنها في ذلك شأنُ أيِّ فنٍّ حادٍثٍ أو قديمٍ، لم تكن استوت على سوقها إلا بمرورها بعددٍ من المراحلِ الانتقاليةِ التي أعادت تشكيلَ بنائها الفنيِّ، غير أنها مع ذلك لم تخرج من ثوبها الشعبيِّ، وذلك عبر نوعين من التطوُّر: **الأول:** التطوُّر الفنيُّ، وذلك أمرٌ مقطوعٌ بأنَّ الفضلَ راجعٌ لقصاصي العصرِ العباسيِّ، فإنَّ القصَّةَ الشعبيَّةَ لم تُغيَّر من نسيجها، باتخاذِ الفاصلةِ السجعيةِ سبيلاً لها إلا في هذا العصر، ولم تعتمد الحكايةُ على عناصرِ البناءِ الفنيِّ متكاملة الأركان (الشخصيات - الأحداث - الفضاء) إلا في هذا العصر أيضاً **والثاني:** التطوُّر الجوهريُّ، ويظهر ذلك فيما اكتسبتهُ القصَّةُ الشعبيَّةُ العباسيةُ؛ نتيجة التغيراتِ الثقافية التي لحقت بالبيئةِ العربيَّةِ في مختلف فضاءاتها بدخولِ الأممِ غيرِ العربيَّةِ في الإسلام، من معاييرٍ جديدةٍ تُشكِّلُ ظاهرةً جديدةً ضمنَ ظواهرِ الانتقالِ بالقصَّةِ أو الحكايةِ الشعبيَّةِ العباسيةِ من طورِ القَدَمِ إلى طورِ النُضجِ، حيثُ تشكَّلت بشكلِ القصَّةِ الهنديَّةِ والفارسيةِ وغيرهما مما دخلَ إلى العربيَّةِ من طريقِ التَّرجماتِ من حيثُ كانَ لذلك الاحتكاكِ العربيِّ الواسعِ في تلك الفترةِ دوراً بارزاً في انتقالِ القصَّةِ الشعبيَّةِ العباسيةِ من طورِ الانغلاقِ على الذاتِ إلى الانفتاحِ على ثقافاتٍ أُخرى متنوِّعةٍ غزيرةِ الإنتاجِ في هذا الفنِّ، إذ إنَّ العربَ قد حَصروا جهودهم وعلمهم بفنونِ القولِ قديماً في الشعرِ دون النَّثرِ، أما هذه الأممُ التي احتك بها العربُ في ذلك العصرِ، فكان أغلبُ فنِّهم قصصياً، فأسهَم نقلُ العربِ عنهم - من طريقِ التَّرجمةِ - في توسُّعِ الفنونِ القوليةِ عند العربِ، واكتسابها نزعاً فنيَّةً جديدةً، ونزوع الكُتَّابِ إلى التَّطويلِ في السردِ، على غيرِ اعتيادٍ، فقد جرَّت العادةُ بقصرِ القصَّةِ الشعبيَّةِ عند العربِ إلى زمنٍ ما قبلَ ترجمةِ كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة ولو قلنا بأنَّ المكتسبات التي حصلتُها الحكايةُ الشعبيَّةُ العباسيةُ من طريقِ ترجمةِ عدد من القصصِ الشعبيَّةِ لمجموعة من الكُتَّابِ القدامى من غير العربِ، محصورةً في ذلك الجانبِ، لكان ذلك الحُكمُ بمعزلٍ عن العدلِ والإنصافِ؛ والحقُّ أنَّ لتلك التَّرجمةِ دوراً بارزاً في تغييرِ مساراتِ القالبِ الفنيِّ للحكايةِ الشعبيَّةِ العباسيةِ، في استدعاءِ تقنياتٍ جديدةٍ لم تكن مستعملةً في الحكايةِ العربيَّةِ قبلَ تلك التَّرجماتِ، كطولِ السردِ، والانفلاتِ من تراتبِ الأحداثِ، وتعميقِ الدلالةِ المنشودةِ من خلالِ الانتقالِ بالروايةِ من طورِ المباشرةِ إلى طورِ التَّعظيمِ والانكسارِ، فوفقاً لمعيارِ قياسِ تأثيرِ الثقافةِ الحادثةِ في الثقافةِ التي دخلت عليها من طريقِ ترجمةِ عدد من مؤلِّفاتِ الثقافةِ ذاتِ التأثيرِ، نعتزُّ على مجموعة من الطَّواهرِ الثقافيةِ التي حملتها الحكايةُ الشعبيَّةُ العباسيةُ من تلك الثقافاتِ، ومن الممكن أن تتمثَّلها في نقاطٍ محدودةٍ على ذلك النحو: انتقالِ الحكايةِ الشعبيَّةِ في العصرِ العباسيِّ من طورِ التَّسليِّ إلى طورِ معالجةِ القضايا الاجتماعيةِ -إضفاءً تحوُّلِ النمطِ الحكائيِّ على القصَّةِ الشعبيَّةِ في ذلك العصرِ نوعاً من الحكمةِ المكتسبةِ من الحكاياتِ الشعبيَّةِ (كليلة ودمنة) المُترجمةِ عن الهنديَّةِ. امتزاجُ المكوِّنِ الثقافيِّ الخارجيّ بثقافةِ المجتمعِ العباسيِّ، وانتقال ذلك إلى الحكايةِ الشعبيَّةِ وظهوره فيها، من حيثُ اللغة، وقد ظهر ذلك في كثرةِ المُعَرَّبِ والتَّخيلِ في تلك الحكاياتِ

- ١- مظاهر التأثير الديموغرافي على ثقافة المجتمعات، د. هدى داود نجم السعد، ص ٢٣٤، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، عد: ١٣، ٢٠١٩
- ٢ ينظر: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي البغدادي، ١/٥٦ : ٥٧، المكتبة الأهلية، القاهرة، مصر، ط٢، ١٩٨١
- ٢- الحكاية الشعبية (الماهية الرمزية، الوظيفة، المأثورات)، د. محمد مجاهد، ص٤٠٤، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١
- ٣- الحكاية الشعبية العربية، د. شوقي عبد الحكيم، ص٨، دار ابن خلدون للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠
- ٤- ينظر: المصدر نفسه، ص١٩
- ٥- ينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، ص٤٤٨ : ٤٥٢، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط١٢، ٢٠٠٦
- ٦- القصة الشعبية من الجاهلية إلى الإسلام، د. عمار عبد الحكم الياسري، ص١٢١، النادي الثقافي الأدبي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١٩
- ٧- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، ص٤٥٦
- ٨- تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية) د. عمر فروخ، ٣/٢٩، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٨١
- ٩- ينظر: العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ص٦٧، ط٥، ١٩٨١
- ١٠- الظواهر الفنية للقصة القصيرة في العصر العباسي، د. سمية الماجد، دار نبراس للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠٠١
- ١١- أثر الترجمة في تطور العلوم والفنون خلال العصر العباسي، د. هناء شبياكي، ص٥٦٥، محاضرة منشورة بمجلة الملتقى الأدبي ٢٠٢١
- ١٢- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، ص٤٥٦
- ١٣- الترجمة والتعريب في العصر العباسي، د. محمد بن سالم المعشني، مجلة أدبيات العربية (الفارسية)، ٢٠٢٠
- ١٤- الترجمة والتعريب في العصر العباسي، د. محمد بن سالم المعشني، مجلة أدبيات العربية (الفارسية)، ٢٠٢٠.

References

- ١-Najm Al-Saad, H. D. (2019). The Demographic Impact on the Culture of Societies (p. 234). Journal of the College of Arts, University of Basrah, (13).
- ٢-Al-Alusi Al-Baghdadi, M. S. (1981). Bulugh Al-Arab fi Ma'rifat Ahwal Al-Arab (Vol. 1, pp. 56-57, 2nd ed.). Al-Maktabah Al-Ahliyyah, Cairo, Egypt.
- 3-Mujahid, M. (2011). The Folktale: Symbolic Essence, Function, and Traditions (p. 4, 1st ed.). Kunuz Publishing and Distribution, Cairo, Egypt.
- 4-Abdel-Hakim, S. (1980). The Arabic Folktale (p. 8, 1st ed.). Ibn Khaldun Publishing and Printing, Beirut, Lebanon. See: Ibid., p. 19.
- 5-Deif, S. (2006). History of Arabic Literature: The First Abbasid Era (pp. 448-452, 12th ed.). Dar Al-Ma'arif, Cairo, Egypt.
- 6-Al-Yasari, A. A. H. (2019). The Popular Story from Jahiliyyah to Islam (p. 121, 1st ed.). The Literary and Cultural Club, Jeddah, Saudi Arabia.
- 7-Deif, S. (2006). History of Arabic Literature: The First Abbasid Era (p. 456).
- 8-Farroukh, O. (1981). History of Arabic Literature: The Abbasid Eras (Vol. 3, p. 29, 4th ed.). Dar Al-Ilm Lil-Malayin, Beirut, Lebanon.
- 9-See: Al-Qayrawani, A. A. H. bin R. (1981). Al-'Umda fi Mahasin Al-Shi'r wa Naqdihi wa Adabih (Ed. M. M. A. Abdel-Hamid, p. 67, 5th ed.). Dar Al-Jil, Beirut, Lebanon.
- 10-Al-Majid, S. (2001). The Artistic Features of the Short Story in the Abbasid Era (1st ed.). Nebras Publishing and Distribution, Jordan.
- 11-Shabayki, H. (2021). The Impact of Translation on the Development of Sciences and Arts During the Abbasid Era (p. 565). Al-Multaqa Literary Journal, Benghazi, Libya.
- 12-Deif, S. (2006). History of Arabic Literature: The First Abbasid Era (p. 456).
- 13-Al-Ma'shani, M. B. S. (2020). Translation and Arabization in the Abbasid Era. Adabiyat Al-Arabiyya (Persian-Arabic Journal).
- 14-Al-Ma'shani, M. B. S. (2020). Translation and Arabization in the Abbasid Era. Adabiyat Al-Arabiyya (Persian-Arabic Journal)